لا شك في ان وجود البنك والجريدة والصهيوني جابوتينسكي، مما اشرنا اليه، في عاصمة الامبراطورية، قد اثار اكثر من الاقاويل. ولا بد، هنا، من الانتباه الى ان انقلاب الاتحاديين كان، في جوهره، التعبير عن رغبة البرجوازية ـ الرأسمالية في الاستيلاء على السلطة وانتزاعها من يد الاقطاع الذي مثله سلاطين بني عثمان. وفي العادة، ونظراً لطبيعة الصهيونية ذاتها، يمكن الوقوع في صفوف الرأسماليين على مؤيدين للحركة الصهيونية، او متأثرين بها، او متساهلين بشأنها، أكثر ممن يمكن الوقوع عليهم في صفوف الاقطاعيين. ومن هنا، يبدو ان الصهيونيين وجدوا اقنية للاتصال مع الاتحاديين اكثر من تلك التي توفرت لهم في عهد السلطان المخلوع، وكان لليهود من رعايا الدولة العثمانية الاتراك شيء من النفوذ. والملاحظ، بعد هذا الافتراض، ان اليهود، من كل الاصناف، مواطنين عثمانيين وأجانب، اظهروا حماساً للحكم الجديد، ولا شك في ان آمالهم انتعشت في ظله، بصرف النظر عن واقعية، او عدم واقعية، الامكانات التي توفرت فعلاً لتحقيقها[٥٦].

تنشيط الدعاية المناهضة للصهيونية

غير ان تأثير الانقلاب الدستوري، هذا، لم ينعكس، فيما يتصل ببحثنا، في مجال انعاش الآمال الصهيونية، وحده، بل كان له منعكس آخر مغاير تمثل في تأثيره الايجابي على نشاطات معارضة الصهيونية في فلسطين. فهذا الانقلاب، حين أباح شيئاً من الحريات السياسية والصحافية، أوجد على هذا الصعيد مناخاً افضل من المناخ الذي سبقه بكثير، لظهور صحافة وطنية ناشطة في التوعية على مخاطر الصهيونية، بالاضافة لحفزه الاتجاه نحو الاستقلال، مما سبقت الاشارة اليه. وبهذا، انفتح الباب امام امكان انتقال زمام المبادرة في الاعتراض على المشروع الصهيوني من ايدي السلطات العثمانية الى ايدي العرب، ثم الى ايدي عرب فلسطين فيما بينهم، فيما نشطت حملة صحافية، لم يسبق لها مثيل، لاثارة اوسع الاهتمام بما يقوم به الصهيونيون في البلاد. وقد تميز، في اطار هذه الحملة، موقف جريدة «الكرمل» وصاحبها، ثم رئيس تحريرها، نجيب نصّار، الذي استفاد من الحريات الدستورية ليشدد حملة جريدته على الصهيونيين، كما شدد دعوتها الى اليقظة العربية في مواجهتهم[٥٧]. وهكذا انتعشت الحوارات في فلسطين، الى حد ما، بشأن الصهيونية في ظل الحريات الصحافية التي استفاد منها، أيضاً، الصهيونيون وانصارهم. وكان، مثلاً، ان نبهت جريدة «الكرمل»، في احد اعدادها، في العام ١٩٠٩، الى مخاطر انتقال الاراضي الى اليهود وتخوفت من «ان يأتي يوم يكون لهم في الارض القول الفصل»، فتصدت لها جريدة أخرى هي «جراب الكردي» على اساس انه «خير لنا ان يأتي اصحاب الاموال من اي بلاد كانت واي جنس كان ليستخرجوا كنوز ارضنا... من ان تبقى هذه الجواهر ضائعة ونحن نتبجح بكلمة الوطن والوطنية وجيوبنا افلس من طنبورة او رباب»[٥٨]، وغير هذا من الامثلة، وذلك في ظل استمرار الرفض العثماني للمشروع الصهيوني.

ان استمرار هذا الرفض لا يعني ان احتمالات اختراق القوانين الرسمية التي كانت قائمة في عهد عبدالحميد قد تبدلت؛ اذ ان ذلك ظل ممكناً، أيضاً، في عهد الاتحاديين. اما الشيء الذي جدّ حقيقة، فقد جاء مع ظروف الحرب العالمية الاولى، وذلك حين اتخذت السلطات العثمانية عدداً من الاجراءات الشديدة ضد اليهود وزعاماتهم الصهيونية على وجه